يبدو ان المثقفين يصمتون قمعا وانعزالا من السلطة ومن المثقفين انفسهم . حالة الشاعر محمد الماغوط هي نموذج لهذا القمع. فالماغوط الذي وسم القصيدة العربية بميسمه, عبر عن احتجاجه على السلطة هذه بالانعزال والصمت . هل ترى ان الثقافة العربية مقموعة ؟ مم؟ وممن؟ وكيف تفسر انعزال الماغوط وصمته ؟

لغة التوهج

ليست ظاهرة الصمت عند المبدعين جديدة في ثقافتنا العربية فقد صمت خليل حاوي مرتين قبل صمته الاخير. كانت المرة الاولىعام ١٩٥٩ كرد فعل على انهيار الوحدة العربية بين مصر وسوريا والثانية بعد هزيمة حزيران ٦٧ , ولم يرجع عن صمته إلا عندما لاحت له بوادر فجر جديد رآه في المقاوم الفدائي الذي برز دوره بعد معركة الكرامة. ونعلم ايضا ان سعدالله ونوس صمت الى حين بعد تلك الهزيمة للسبب ذاته .

يلجأ الادباء عادة الى مثل هذا الفعل السلبي, في ظاهره, استنكارا لحدث درامي عنيف يزلزل ما كان في يقينهم من الثوابت والمسلمات. والاحتجاج هذا قد يكون موجها بالدرجة الاولى من المبدع الى ذاته المبدعة التي قضت تعمل جاهدة لسنين على مشروع ليتبين له ان عملها كان عبثيا لم تعل قيمته على قيمة المداد الذي كتب به . . . في هذه الحالة يكون الصمت فعل اعتراف من الشاعر او الكاتب بفشل مشروعه الابداعي. إلا انه, في اعماقه, يؤمن ان مسؤولية هذا الفشل لا تقع على عاتقه بل على المتلقي الذي قصر عن استيعاب المشروعه وبلورته الى فعل , وعلى الحاكم السلطوي الذي عاداه لان فيه تهديدا لكيانه القائم على ركائز مناقضة لطروحاته, وعلىالمشرع الديني والاجتماعي الذي منعته رؤيته المنغلقة الخائفة على امتيازاتها المكتسبة منذ عصر القبائل من الولوج في مغامرة التغيير. من اجل هذا يلجأ الكاتب ألى الصمت متوقعا من صمته هذا ان يحدث الصدمة اللازمة بعد ان فشل الكلام. إن صمت الكاتب هو كلام من نوع آخر. إنه لغة التوهج , على حد تعبير مخرج بوسني شاب اتخذ من الصمت قالبا لتصوير فيلم يعرض فيه ماساة سراييفو . لقد ركز المخرج على وجوه نساء ورجال واطفال سحقتهم الحرب كانوا يحدقون بالكاميرا ولا ينبسون ببنت شفة. وعندما سئل عن معنى هذا الصمت قال: كانت سراييفو شبه مشاع لكل ذئاب الارض, كانت بلادا حافلة بالوعود المنكوثة والاشفاق الزائف ولكثرة ما تحدث الناس عن مأساتهم دون ان يفعلوا إزاءها شيئا , فقدوا شهوة الكلام . لقد قرروا ان يصمتوا تعبيرا عن اعتزازهم بكرامتهم . كان الصمت هو الوسيلة الوحيدة للوصول الى هؤلاء البائسين . . . كانت النظرة المحدقة نافذة كأقسى ما تكون الرصاصة

لا غرو ان صمت الماغوط يحمل هذه الدلالة بابعد معانيها,فليس ما حدث في سراييفو باكثر مما يحدث في فلسطين ولا هذا العجز العربي والتفرج الغربي اقل مبالاة منه هنا عما كانه هناك. يزاد اليه هذا الرضوخ المهين لارادة العدو: كتسمية الشهداء بالانتحاريين, وانقلاب الثوار الى مفاوضين فاشلين, والحكام العرب الى اداة تدجين للمنتفضين والمقاومين. إزاء هذه الحالة لا بد لصاحب الكلمة ان يتنكر لبضاعته لاحساسه انها قاصرة عن التماهي بالحدث. فيتخذ الصمت كلاما والصمت ابلغ الكلام. . .

من سيسمعني إذا صرخت بين فرق ملائكية؟

لا يخفى على المتابع لمسيرة الماغوط الابداعية ان الرجل سائر الى صمته لا محالة. لقد فارقته منذ امد تلك اللذعة التهكمية المحببة, وقل ان حوت اعماله المتأخرة شخصيات عفوية طيبة ك "حسني البورازان" و"ياسين" و"المختار" و"كوكب"والتي اعتبرت اكتناز لخاصية الشعب الطيب وقيمه الاصيلة التي سيكتمل اختمارها يوما لتقوم بفعل التغيير المؤّمل. عوضا عن ذلك بدأنا نقرا الكثير من الشخصيات المهزوزة التي فقدت قيمها: الانتهازي المخاتل, المدعي, المغرور. . . (احيل في هذا على مقالاته المتاخرة في صحيفة الوسط, كمثل: (رجال المرحلة, على باب الوزير, الصحن السداسي, طبيعة صامتة. . . الى حين وغيرها).

التي يبدو فيها وكأن الكاتب قد فقد الثقة بتلك الشخصية بعد ان احالها طول الرضوخ للقمع والترهيب والفقر الى نماذج تتقمص جلد الحاكم تستعيض عن القيم الاصيلة بالعرضي والزائف الذي يلبي الحاجات الانية الرخيصة على حساب القيم الاصيلة

يعرف كل من مارس الكتابة الابداعية أن الانسان يكتب وفي رأسه قارئ وهميّ يتوجه اليه يحاوره ويغريه للولوج الى عالمه وتبني قيمه ومبادئه, وعندما يفقد الكاتب ثقته بوجود مثل ذاك القارئ يشعر بالاحباط ويحس بانه لم يكن هو الفاعل في لعبة الحياة وانه لم يفعل شيئا سوى اخذ مكانه في الفراغ. يرى نفسه كالخطيب الذي يخطب في جماعة من النيام. . . شعور كهذا يجعله يلجأ الى الصمت مرددا مع ريكله: " من سيسمعني إذا صرخت بين فرق ملائكية؟"

منذ طوفان الغوغاء كان خارج السرب

تطرح هذه المساءلة تساؤلا عما إذا ما كان للسلطة الحاكمة والمثقفين دور في إحباط الماغوط ومن ثم صمته. جولة سريعة في فكر الكاتب تري انه أخرج منذ زمن هذه السلطات من حسبانه, فهو قد نفض يده منها. ادانها ولقم قبرها حجرا منذ ايام "صح النوم" و"وادي المسك" و"الارجوحة" . إن من خذله هي السلطة الاجتماعية التي تقوقعت داخل شرنقتها وآثرت البقاء على موروثها الراكد, وإن أسن, على الخوض في مغامرة التجديد. والسلطة الدينية التي راحت تحلل وتحرم وتنصب نفسها رقيبا على عقول الناس واقلامهم. من مصر الى الجزائر الى الاردن وحتى من باريس ولندن اصوات تقمع باسم الدين مرة وباسم الحفاظ الى المجتمع من الفساد القادم من الغرب ثانية وباسم عدم تشويه صورتنا في عين الاخر في ثالثة. في مصر يقتل فرج فوده وتسجن نوال السعداوي وتحرق كتبها وتقدم إيناس الدغيدي للمحاكمة وتحرم رواية محمد شكري وتقوم الدنيا ولا تقعد على وليمة حيدر حيدر. وفي الكويت تحارب سعاد الصباح وتتهم بالهرطقة والاباحية وتمنع كتبها من التداول. وفي سوريا يسجن النيوف ويعتدي على رئيس اتحاد الكتاب والصحفيين . وفي الاردن تسجن توجان الفيصل وتسن قوانين لتزيد من لجم الكلمة وقائلها. وفي لبنان تعطل اكثر من صحيفة. وليس في كل مرة تكون السلطة الحاكمة هي المسؤولة بل في كثير من الاحيان يكون وراء هذه الانتهاكات قوة شعبية محركة بغرائز بدائية. قوى شعبية عمل الماغوط عمره على تثويرها فخذلته

ليس هنالك اسهل من توجيه اصبع الاتهام الى المثقف او النخبوي, كما يحلو للبعض تسميته, فهو الهدف السهل لكل منتقد ولائم إذ ان "لا خيل عنده يهديها ولا مال", زيادة على ذلك فقد حمل بذور ادانته قوية لا يمكن أغفالها. إذ ان عمله طيلة نصف قرن من الزمن (عمر تكون معظم الدول العربية) لم يستطع تفعيل اي فكرة طرحها او قيمة دافع عنها, فقد فشل الفكر القومي والاقليمي والاممي على حد سواء. وعلى مستوى الاجتماعي لا زالت الامراض هي هي: تعصب قبلي وطائفي وجنسي وطبقي, حتى انه في الاحداث الحالية رأى الكثيرون ان فئة المثقفين كانت مغيبة فقد اختطف رجل الشارع الذي تظاهر واعتصم واعترض وقاطع الدور منها (هذا إذا ما اعتبرنا ما حدث إثر ماساة جنين دورا). إلا أن أن التوقف في عرض حالة المثقف عند هذا الحد فيه إجحاف بحقه, فهو من ناحية يعزله عن باقي طبقات المجتمع وينكر عليه جهده, الذي على تواضعه, كان له اليد في تثوير هذا الشارع. . . بل ان نظرة متفائلة الى المشهد الثقافي العربي تري ان تغييرا خجولا يسري في جسده. تغيير فرضته ثورة التكنولوجيا العصرية من انترنت واقمار صناعية كان نتيجتها إنفلات المثقف من ربقة الرقابة السلطوية وجعلت تواصله وتلاقحه بثقافات وحضارات أخرى سريعا وفعالا . كما ان المثقفين العرب في المهاجر, او المنافي كما يحلو للبعض تسميتها, استفادوا من مناخ الحرية والديموقراطية اللذين امنتهما له البلاد التي هاجروا اليها فانفتحوا علىالاخر بشكل اكثر حرية, وبدأوا يعون مشاكل أوطانهم وهمومهابتعمق ورؤيا أكثر شمولية. هؤلاء المنفيين قسرا او طوعا بداوا يؤسسون لثقافة الاختلاف. يرفدهم في عملهم جيل جديد ابتعد زمنا عن ثقافة السلطان العثماني او المستعمر اللذين كانا

يريدانها ثقافة تلقين لا ثقافة خلق وابداع ولو ان هذا الوعي لم يزل هجينا ولم تزل جامعاتنا تخرج الموظف قبل المثقف والسائر في السرب لا المتمرد عليه, إلا ان الماغوط المحبط على مدى نصف قرن لم يلحظ تكون هذا الخديج

لا انكر ان مثقفنا العربي لم يلاق بعد طموحات الذين يرون في المثقف "العامل, الخالق, المرمم لتصدع الحياة الانسانية. . . " إذ لا نستطيع ان نتجاهل انحراف الكثير من المؤسسات الثقافية من صحافة ودور نشر وجمعيات عن هذا المعنى, والتي تولي اهتمامها بالدرجة الاولى للربح المادي. وكي تحقق هذا الربح ارتمت باحضان هذا او ذاك من رجال المال او السلطة سواء كانوا حكاما او معارضين فغمطت بذلك الكثير من المواهب الابداعية وعلا فيها صوت التجاري على صوت الموهبة. وحذا المثقفون حذو المؤسسات هذه فإذا هم في معظمهم يخضعون لقيم الصحيفة التي تدفع لهم أجر مقالاتهم. فهذا يمالئ تيارا يمينيا وذاك اصوليا وغيره داعية لهذا الحاكم او ذاك وآخر طموحه مختلف يمالئ هذه الجائزة او تلك من الجوائز الادبية المشبوهة. وقد أقلقت هذه الحالة السلبية, الماغوط, فتبرا منها قائلا: "منذ اول طوفان الغوغاء كنت خارج السرب . عندهم الشعر او الادب وسيلة وهو عندي قدر. . . هذا العصر هو ضد الموهبة , إنه عصر لتفريغ العواطف لا لشحنها. في اعتقادي ان النظام العالمي الجديد لن يسمح للمبدع العربي خصوصا وللمواطن عموما بتجديد اي شيء". وقد اضاف الشاعر الى إدانته هذه إدانة أخرى لذاته مقرا انه مشى في كوكب الخطأة فاعترف انه كان سببا في حجب موهبة زوجته الشاعرة سنية صالح, وبالتهمة ذاتها كال للشاعرادونيس في موقفه من زوجته الاديبة الناقدة خالدة سعيد.

أخيرا لا بد لنا إلا أن نتساءل, لماذا لا تكون مأساة الماغوط مسألة وجودية اقحم فيها العام نفسه على الخاص, كتلك التي المت بمبدعين كثيرين قبله مثل "ميلر" و"رامبو" و"شباب موسيقى الغضب" . . .؟ أليس من المحتمل ان تكون حالة الشاعر من نوع ما تسميه الفلسفة "اللاشيئية غير البطولية" التي تتلخص باحساس الانسان بعبثيته ولا جدوى وجوده والتي يطلق عليها "دعوى الوجود الانساني" حيث يسيطر على الانسان شعور بالعجز لا يستطيع إزاءه ان يهرب من اوهامه فيعيش ويموت مسربلا بالارتباك ؟ شعور ارق كبار المبدعين , نقرأها في قصيدة "الفارغون" ل "ت. أس. إليوت", ورواية "الغثيان" ل"جان بول سارتر" و"الغريب" ل"ألبير كامو". . . والتي تنتهي جميعها الى نتيجة: "إننا رجال فارغين, رجال مختنقين, هكذا ينتهي العالم لا برجفة عنيفة بل بنواح خافت "

لا بد ان هذه العوامل مجتمعة ادخلت الماغوط في صمته, وما صمته إلا تعبير عن مأساة جيل بكامله. مأساة عبرت عنها الاديبة "أروى صالح" قبيل انتحارها قائلة: إن خصوصية المأساة عند جيل خاض تجربة التمرد , هي انه أيا كان مآل كل واحد من ابنائه , سواء سلك سكة السلامة: طريق التوبة والاذعان لقوة الامر الواقع واعلان الكفر بكل قيم التمرد القديم. أو سلك طريق الندامة: الانهيار واعتزال الحياة والمرض النفسي, فإنه شاء أم أبى لا يعود الشخص ذاته قبل ان يبتلى بغواية التمرد. لقد مسه الحلم مرة, وستبقى تلاحقه دوما ذكرى الخطيئة الجميلة. لحظة حرية. وخفة لا تكاد تحتمل لفرط جمالها. تبقى مؤرقة كالضمير, وملهمة ككل لحظة مفعمة بالحياة. . . والفاعلية المؤلمة

نجمه حبيب
٢٠٠٢/٦/١٤